الحياة الطيّبة
السنة 27
العدد 53-52
شتاء-ربيع 2023م
ملف العدد

الخطاب الإسلاميّ المعاصر - دراسة معالم التشكّل ووظائف الخطاب وآفاقه-

الدكتور هادي قبيسي[1]

مُستخلَص:

تتزايد أهمّية دراسة الخطاب وتطويره في المجتمعات التي تعيش تحديات ثقافية وإدراكية متقاطعة مع التحديات السياسية والاقتصادية، ويحتاج هذا التطوير إلى التوازن بين مواكبة المنافسين والحفاظ على الخصوصية الثقافية، ويسهل تحقيق هذا التوازن، نظريًا، حينما يكون للمنافس ثقافة نقيضة، غير أن استقصاء سبل المنافسة الفعالة يحتاج إلى أن يكون التجديد هدفًا بحد ذاته، يحرك عملية الإبتكار، كيما يتسنى للمجتمع المستهدف المشاركة في السباق. يقدِّم البحث مجموعة مقترحات لتطوير الخطاب في اتجاهات ثلاث: طرائق تشكيل الخطاب، التشكّلات الأساسية للخطاب، طرائق تسييل الخطاب. ويهتم بتقديم مقترحات خاصة بمجتمع المقاومة، الذي حقّق التحوّل التاريخي في مستوى الصراع المباشر، وانتقل إلى مستويات غير مباشرة للمواجهة، فتحوّلت قضايا الجيل الجديد لهذا المجتمع، وجاذبية الطرح الثقافي الاجتماعي، وقدرة الثقافة الأصيلة على معالجة المشكلات الفردية والاجتماعية المعاصرة إلى الجبهات الرئيسية للتحرّر؛ ما يعني أنّ العمل على تطوير الخطاب في المستوى النظري،

(1) باحث في الفكر الإسلامي، من لبنان.

ومن ثم تطوير التجارب التطبيقية، أصبح حاجةً ملحة، ولم يعد بالإمكان مكافحة عمليات الحرب الإدراكية من خلال حركة التطوّر التلقائي الذي يمكن أن تخوضه أي تجربة تسير بدون برنامج للتقدّم والإبداع، وهنا ينصب منظور البحث.

كلمات مفتاحية:

برامج التغيير الثقافي، الحرب الإدراكية، التهجين الثقافي، وسائل التواصل الاجتماعي، الخطاب الديني، جهاد التبيين، احتمال التأثير، جماليات الخطاب، التبليغ السلوكي، عقل التفاهم.

تتعرض بيئة مجتمعاتنا إلى محاولات تغيير ثقافي من عدة نواحٍ من مستويات متفاوتة: رؤيتها الكونية ونظرتها الكلية إلى الحياة، منهج التفكير والمعرفة والإدراك، والقيم وأسباب السعادة، والأولويات وكيفية ترتيبها، والانطباع عن الذات والهوية الجماعية وخصالها النموذجية وتلك المعاشة واقعًا، وتقديرها لذاتها الثقافية ونمط عيشها ورموزها. هذه الاستهدافات تتحرّك بشكل متزامن وفق مسارات متوازية يدعم بعضها بعضًا ويرفده.

مضافًا إلى عمليات وبرامج التغيير الثقافي، فإن بيئة مجتمعاتنا تتلقى مشروعًا وطرحًا ثقافيًا بديلًا، بل طيفًا من البدائل التي يمكن أن تلائم الشرائح المختلفة، في حين يتزامن ذلك مع متغيرات حياتية واقتصادية وسياسية متسارعة، ما يجعل الكلام عن الخطاب المناسب لمعالجة هذه التحدّيات مسألة تجمع بين المرونة والدقة. المرونة التي تتيح للخطاب أن يتصل بشرائح متنوعة تسير في طور التغير الثقافي الدائم، والدقة التي تخول الخطاب الدخول إلى المناطق المعتمة والأغوار المجهولة للإنسان كي تفتح له نوافذ يتلمس منها العودة إلى النور والسير التكاملي المحدد في أصل النشأة الفطرية وما يلائمها، ويسهل إعادة سيطرة الإنسان على حياته، ليحدد طريقه المناسب وسط أدغال الحداثة وإشكاليات تنشأ يوميًا بفعل التحديات أو الاستهدافات المهندسة لتضييع ثقافة وهوية جيل بأكمله.

إعادة تقديم الطرح الإسلامي من الزاوية التي يفهمها الجيل، وباللغة التي تستطيع الاتصال به في حمأة الكثرة المادية المتفاقمة، هي عملية شديدة العمق وتحتاج إلى ثقافة مختلفة لدى النخبة، كما أنها من جهة أخرى عملية اكتشاف جوانب مهملة، لم يلتفت السابقون إلى ضرورة تقصي أعماقها وجوانبها واستنباطها من مصادر الفكر الإسلامي وينابيعه الثرية، ذلك الفكر المناسب لكل زمان ومكان. فالمتن الكامل للرسالة الإلهية يحمل كل وجوه العرض التي تلائم الأفهام والعصور، لأنه بني على

أساس شمولية الإنسان لكافة العوالم، وبالتالي لكل عالم ولكل تفصيل في كل عالم وصلة مع الرسالة الإلهية التي تعرف عن نفسها بـ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾[1].

مشكلة الجيل الجديد

يتميّز جيل هذه المرحلة بمحمولاته الثقافية والمعيشية بخصائص لم تكن موجودة فيما سبق، إلى جانب إشكاليات ورثها أو لا تزال تتدفق في مسام الحياة الثقافية من جيل إلى جيل، بحيث تصل إلى كل الأجيال. حين نتحدث عن مشكلة الجيل، فإنّنا نتحدث عن مشكلات أصابت بعضًا من شرائحه، إلا أنها غدت كثيرة التداول والظهور بحيث يصح تعميمها مع شيء من التسامح.

يتشارك الجيل الحاليّ مع مشكلات الجيل السابق في رغبته خوض تجربة جديدة ونيل حرّيّة من الأهل والموروث، وبالتالي هناك دافع ذاتيّ للتغيّر الثقافي والتحرَّر من الهوية الثقافية، وهذا التحرَّر ليس كليًا بالتأكيد، لكنه انزلاق جزئي وتدريجي خارج هذه الهوية. الدافع الذاتي لا يعني أنه لم يكن نتيجة مؤثرات ثقافية وافدة وأجنبية، جاءت تحديدًا تحت مظلة الحداثة، لكنه يعني أن الدافع لا يتعلق برؤية موضوعية بقدر ما يتعلّق بأصل الإحساس بالحاجة للتحرر، الحاجة التي تم غرسها وتأكيدها من خلال الإيحاءات الغربية بالتخلّف الثقافي الشرقي على خلفية الانتصار في الحرب العالمية الأولى. يتم عزل بعض الرموز الثقافية والمفاهيم المتعلِّقة بالموروث، دون تمحيص ودون نقاش، لقد تم تصنيفها بشكل شبه كلي بأنها لا تناسب الإنسان المعاصر[2]، والمثير أن هذا العزل لا يطال كل العناصر الثقافية الموروثة، بل بعضها فقط، وهذا ما يدعو للتأمل في

(1) سورة الأنعام، الآية 38.

(2) راجع: بومان، زيغمونت: الشر السائل: العيش مع اللابديل، تـ حجاج أبو جبر، ط1، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2018م.

الأغراض الدعائية والسياسية لهذه الانتقائية في الاستهداف. هذه الإشكالية تجعل من الصعب على الخطاب الإسلامي الوصول عبر المضامين والأفكار والحجج، بل يحتاج إلى سرد جديد ومختلف، فلا يتعلق الأمر بالشكل الفني بقدر ما يرتبط بكيفية التسلل إلى الشعور الفطري والإنساني وإحيائه.

يريد أبناء هذا الجيل أن يثبتوا أنهم أفضل من أهلهم، وخياراتهم أكثر جاذبية، مسلحين بالتكنولوجيا التي تسهل عليهم توفير أسباب التحدي من انفجار المعرفة والقدرة على الاتصال وتوفير الوقت وتخطي الزمان، وكذلك امتلاك اللغة المتناسبة مع البيئة الثقافية المتسارعة التغير[1]. يختار الكثير من أبناء الجيل الحالي مسارات حياتهم وعلاقاتهم وأفكارهم ومواقفهم الأخلاقية بناءً على الجاذبية، لا على الاحتجاج ولا على الطمأنينة والشعور بالسلامة الفكرية والأخلاقية، فإذا اجتمعت الجاذبية مع عناصر القيمة يصبح ممكنًا الانخراط في معالجة الأعماق المعرفية والشعورية للقيمة واستيعابها وتفهمها. يستجيبون للجاذبية التي لا تعني بالنسبة لهم أنهم ملحقون بالجيل السابق بالضرورة، لكن تلك التي تعني لهم تحررهم الحقيقي في ظل الهداية الإلهية، في حال تلمسوا هذا المعنى ومن ثم شعروا به من خلال الممارسة.

الأزمة الكبرى التي يعيشها الجيل وتشاركها مع عدة أجيال سبقته، هي أنه يمتلك تصورًا عن الحياة المثالية الحديثة ويريد الحصول عليها دون معرفة كيفية الوصول لتحقيق هذا الهدف. هذا الإشكال بالتحديد يجعله تحت تأثير ضغوطات متعددة، وصراعات نفسية وفكرية حادة، ذلك أنه يدرك أن الظروف المحيطة قد لا تسمح بالوصول إلى تلك الغاية، في دول لا تزال تعيش تحت رحمة الاستعمار الحديث، الاستعمار الذي يشارك النخب السياسية والاقتصادية في اقتسام ثروات وموارد الشعوب المستضعفة؛ لذا

(1) حول آليات التغير الثقافي والتحليل التاريخي لتبدل الاتجاهات الفكرية، راجع: فوكو، ميشال: حفريات المعرفة، تـ سالم يفّوت، لا ط، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1987م.

تنشأ حالة من الشقاق بينه وبين مجتمعه، وتتراكم حالة السخط بحيث تدعم وتساند حالة الانزياح والتخلي الثقافي والفكري عن المنظومة القيمية التي تصبح بالنسبة إليه سبب الصراع الداخلي. الخطاب الديني هنا يحتاج إلى أن يكون مسكونًا بالحس التاريخي والمعرفة السياسية، وإلا لن يستطيع تفكيك المشكلات الفكرية والثقافية الرائجة والتي كانت سبب تحولات كبرى في السابق.

نتيجة تراكم الأزمات والصراعات وتداخل الشؤون الثقافية باليوميات الحياتية المباشرة، يحتاج أبناء الجيل، كما الجيل الذي سبقه، للتغيير والتعويض على المستوى النفسي إذ يعاني من ضغوط متكثفة، ولذلك هو يحتاج للفعالية العملية، ولا تكفيه المخاطبات والمعالجات النفسية والذهنية، بل يحتاج إلى خطاب يوجه حركته الحياتية السلوكية نحو إنجازات حقيقية في حياته، لذلك فإن خطاب التهذيب لا ينبغي أن ينفك، في نظره، عن خطاب الفعالية والمسؤولية والإنجاز.

نتيجة إحاطة دعاية الحداثة بكل لحظات الحياة، زمنًا ومكانًا، فإن هذا الجيل يشعر بالإحباط واليأس، ويلجأ في حال عدم توفر البديل والمعالجات الأخلاقية والعملية، إلى التفريغ من خلال العبثية والاستهزاء، وبالتالي فهو يحمل في سلوكه عوامل حاجزة له عن التلقي، وتخطيها يحتاج إلى مقاربة خاصة، تبدأ باحتواء أزماته والاعتراف بها والتعامل معها بيد المعالج لا بيد المعلم.

مع تزايد سرعة الحياة وسرعة تدفق الرسائل الخبرية والثقافية تربى هذا الجيل على التسرع، فهو يريد الحلول الآن وليس غدًا، ويندفع في تظهير إشكالياته المتعددة بحيث يتعذّر التعامل معها من خلال المحاججة، وهنا يبقى الاحتواء والتفهم وسبر المشاعر الشخصية للمتلقي مسألة مركزية في تشكيل خطاب العلاج.

العنصر الجديد الذي طرأ على حياة الجيل الحالي هو وسائل التواصل الاجتماعي التي غدت تمارس دورًا يتعدى بمسافات بعيدة تعديل سبل التواصل، فالعرض الدائم لتفاصيل الحياة والمواقف والآراء، والحاجة بالتالي إلى توفر المادة التي تتيح للفرد عرضًا جذابًا ومؤثرًا أصبحت حالة ثقافية عارمة تجتاح لحظات حياة هذا الجيل، وتحرك تفكيره وتشغله وتغير في أنماطه السلوكية وعاداته النفسية، بحيث يحتاج أي خطاب يتوجه إليه لمعالجة أزماته أن يراعي هذا الجانب تفهمًا وتحليلًا وعلاجًا. فهذا الجيل يبحث عن التميز والحضور في الفضاء العام، وقد يدفعه ذلك إلى الخوض في تحول فكري وثقافي وأخلاقي لأجل تحقيق هذا التميز.

لمقاربة هذه الاحتياجات والتحديات نتطلع إلى التعامل مع ثلاثة مسائل أساسية: طرائق تشكيل خطاب إسلامي مناسب للمرحلة والمستقبل، تشكلات الخطاب وآفاقه الجديدة، طرائق تسييل هذا الخطاب؛ بذلك نطوي الدائرة الكاملة من التشكل وحتى التسييل، بحيث نخدم هذا الجيل بمقترح حول الخطاب المناسب له وبما يجلو عنه عثرات واحتجابات وأزمات هذه المراحل الصعبة.

1- طرائق تشكيل الخطاب

طرائق تشكيل الخطاب هي كيفية تحديد زوايا النظر للقضايا المركزية بما يتلاءم مع حاجات الشريحة المتلقية بتنوعاتها ومتغيراتها، ويمكن تصنيف القضايا المركزية إلى مستويين، الأول هو الأبعاد التأسيسية، وهي المجالات الخطابية الأولية التي تحكم كل ساحات الحياة إذا أريد لها أن تلبس صبغة الإسلام. المستوى الثاني هو الأبعاد التطبيقية وينطوي على مجالات خطابية تعنى بالتعامل مع التحديات المركزية المعاصرة التي تواجه المتلقي يوميًا في حياته المعنوية والعملية.

أ. الأبعاد التأسيسية

- المعرفة بالعالم: الموقف من الخصائص الجديدة والحديثة للعالم الذي يعيش فيه المتلقي.

- **العالم الحديث:** موقف الإسلام منه وكيف يتموضع في المنظور الإبتلائي والغائي، وكيف ينظم التعامل معه من الناحية الكلية والتفصيلية.

- **حجب التكنولوجيا:** احتواء حالة التكنولوجيا من خلال رؤية شاملة ومفهوم ينظم حياة الإنسان، بحيث لا يغرق في حجب التكنولوجيا التي أصبحت تسيطر على كل منافذ المعرفة وعلى لحظات الحياة، بحيث تؤثر على التلقي والمعرفة والشعور والإدراك والاجتماع.

- **إدارة الذات:** تحديد الاتجاه العام للمسار النفسي للمتلقي والأفق الذي يتحرك فيه.

- **الأمل:** تأهيل المتلقي لاستيعاب واحتواء الظروف المدينية والمعيشية والروحانية والاجتماعية الضاغطة، وذلك من خلال رؤية عقائدية وروحانية وأخروية متشابكة مع السلوك الحياتي الكلي والتفصيلي.

- **حجب السعادة:** التعريف بالأسباب المعاصرة لخلو الحياة من السعادة، والحجب المانعة من النشاط والحيوية والاندفاع، وتحديد كيفية رفع تلك الحجب والوصول إلى الحياة الطيبة.

- **توفير إمكانية المعرفة:** توضيح دور المعرفة في إدارة الحياة والنجاح والفلاح الدنيوي والأخروي، وتحديد أنواع المعرفة ومستوياتها وطبيعتها.

- **تهيئة العقل والنفس:** تحديد مسار إعادة العقل والنفس إلى الحالة السوية والفعالية والنقية بما يؤهل المتلقي لإدارة المعرفة وتلقيها وفهمها واستيعابها وتوظيفها ونشرها وإنتاجها.

- **البصيرة:** تعريف القدرة على التشخيص والربط بين المجالات المختلفة بناءً على ترتيب الأولويات الكلية وفق المنظور القرآني المحمدي العترتي.
- مراعاة منهج التفكير المعاصر

- **الانطلاق من المداخل الحسية والتجريبية:** تعريف موقع الحس والتجربة في حياة المتلقي في سيره المعرفي والتكاملي.

- **المعرفة بالشريعة**

- **استعادة المسؤولية:** إعادة الاعتبار لمسؤولية الإنسان عن نفسه، وعن آخرته وعن مآل حياته النهائي، ومسؤوليته بالأساس أمام الله سبحانه وتعالى، والتأسيس على ذلك لبناء حياته كلها.
- **المقاصد الإنسانية:** التعريف بالغايات الإنسانية الفردية والاجتماعية للشريعة، وفق الوعي المتعارف شعبيًا للمصالح الإنسانية.
- **النموذج النهائي:** تبين النموذج النهائي للإنسان والمجتمع والدولة في المنظار الإسلامي الذي هو الحياة الفضلى.
- **مواجهة الشبهات:** مساعدة المتلقي على تجاوز الشبهات الأساسية المطروحة في التداول المعاصر من خلال المعرفة الكافية بالمسائل محل الجدال[1].

ب.الأبعاد التطبيقية

- **مواجهة الثقافة النقيضة:** إعداد المتلقي معرفيًا للتعامل مع الثقافة الغربية المتداولة والتي تعتبر نقيضة للطرح الإسلامي.

(1) الخامنئي، علي: جهاد التبيين، لا ط، بيروت، دار الثورة الإسلامية، 2023، ص 47.

- نقاط ضعف النموذج الغربي: التعريف بنقاط ضعف النموذج الغربي في المجالات المختلفة، بحيث يمتنع التأثر بعملية التزييين والإبهار المعتمدة في تسويق ذلك النموذج[1].
- سبل التسلل نحو الأفكار: تبيين سبل التسلل التي يعتمدها العدو في التسلل نحو الأفكار بشكل تدريجي وتغيير الاعتقادات العقلانية الثابتة والراسخة والبديهيات الواضحة والفطريات المحسوسة وجدانًا[2].

- **التعامل مع التحدّيات الزمنية:** تربية المتلقي وتعليمه بأساليب التكيف النفسي والمعنوي والعملي مع التحديات المعاصرة الأساسية، وتبيين دوره في المواجهة.

- **الحصار الاقتصادي:** إعداد المتلقي للتعامل مع حالة الحصار الاقتصادي على المستوى الفردي والاجتماعي والإعلامي.

❍ **الفساد الداخلي:** تحديد دور المتلقي في التعامل مع ظاهرة الانحراف في المؤسسات العامة والخاصة والمساهمة في الاصلاح.

❍ **الأزمة المعيشية:** تبيين سبل تحويل التهديدات المعيشية إلى فرص معرفية وأخلاقية وكيفية تحقيق السعادة في البلاء المعيشي، وكيفية المساهمة في رفعه عن النفس والآخرين والمجتمع.

- **الغزو العسكري:** إعداد المجتمع بكافة شرائحه للتعامل مع التهديد الوجودي المتمثل في الغزو العسكري على اختلاف أشكاله.

❍ **الجهوزية الدائمة:** تبيين شروط ومقدمات ومعينات الجهوزية الاجتماعية الدائمة للدفاع عن الوجود.

(1) الخامنئي، جهاد التبيين، م.س، ص 230.
(2) م.ن، ص 313.

❍ **الاستعداد للتضحية:** تحضير النخبة المقاتلة وبيئتها اللصيقة في المجتمع للاستعداد للمبادرة للتضحية بالأنفس لحماية المجتمع ككل من التهديد الوجودي.

- **بناء المجتمع التقدّمي نحو الظهور**

- **دور الخاصة:** استشراف الرؤيا المستقبلية للمجتمع الممهِّد، وتحضير احتياجات التهيؤ للمساهمة في التمهيد، والإبقاء على الغاية النهائية حية وفاعلة في الحركة اليومية للنخبة.
- **دور العامة:** التأسيس لوعي وامتداد الظهور وحيوية الأمل النهائي، وتحويله إلى مرتكز نفسي ومعنوي وعملي وروحي، والتعرف إلى الإمام والارتباط به باطنيًا ونفسيًا وعمليًا.

2 - أهم تشكلّات هذا الخطاب وما يمكن أن تنطوي عليه من آفاق جديدة

بعد تشخيص وتبيين زوايا النظر المناسبة للقضايا المركزية، نذهب للكلام عن كيفية بناء الاتصال الخطابي، أو التشكلات الخطابية، وشرائط تدخل وتأثير الخطاب في وعي الشرائح فيما يخص تلك القضايا المركزية، بحيث يتحول الخطاب إلى حالة التفاعل والارتباط الحيوي والارتقاء إلى درجة إعادة تكوين البنى المعرفية والشاكلة السلوكية المتعلقة بتلك القضايا في حياة الأفراد المعنوية والعملية، بحيث يعيد تعريف وتحديد تلك القضايا بما يتلاءم وكل زمان ومكان، وفق الأصول الحقة.

أ. **اللغة:** تطوير المفردات، وتحويل مفهوم عالم الدين إلى مفهوم الإنسان المسؤول الأبوي

هي الحامل للرسالة بالمفردات والسياق والاستعارات والأمثلة، فالمعرفة والثقافة الدينية عندما يراد لها أن تتحول إلى تبليغ عمومي

تحتاج للتحول إلى سرد مقبول في التداول اليومي للجمهور، من دون أن تغرق في الشعبوية أو اللامبالاة. يحتاج هذا التحول إلى إخراج المعرفة من قالبها المدرسي، والفكرة من مسار بنائها الاستدلالي والاحتجاجي؛ لكي تحاكي الألفاظ البسيطة المتداولة، وتواجه الحالات النفسية اليومية والأفكار السارية في النقاشات الاجتماعية. لا تعبر الفكرة هذا التحول إلا بصيرورتها حالة معاشة ومألوفة لدى المتكلم بحيث ينطلق في تعبيراته بشكل عفوي بناءً على معايشته الذاتية للفكرة، لا بناءً على المسار التعليمي الذي تأسست من خلاله في الذهن. والتحول في اللغة صار ضرورة لازمة إذا أريد للخطاب الديني أن يواجه التحدي المقابل، حيث يقوم التبليغ المادي والليبرالي على أساس حيوي مبني على الأحاسيس والغرائز والانفعالات في لغة تداولية شديدة السطحية والتبسيط، وإذا لم تتمّ مواكبة هذا التحدي، فسيغرق الخطاب الديني في دائرة مغلقة وضيقة.

ب. **السرد:** التنويع في السرد، والتجديد الدائم لمنافسة سرعة التغير في الخطاب النقيض

اللغة تشكل مادة تحمل المعنى، وهي تسري وفق سرد يفترض أن يناسب المعنى والمتلقي في الآن عينه، وهذا التناسب يفترض أن يأخذ بعين الاعتبار السرديات المنافسة وأسلوبها إذا أردنا له أن يحجز مكانًا له. السرديات المقابلة للطرح الإسلامي تعتمد على الحداثة ومتعة الاكتشاف والتراكم الدرامي، والتنوع والتجديد، واستخدام التأثير إلى جانب الحجة والمنطق، إلى جانب مزايا عديدة أخرى. هذا التحدي يلقي بثقله على مسار السرد وأسلوبه وكيفية تقديم الطرح الإسلامي، والمرحلة الحالية ومتطلباتها تضع الخطاب الإسلامي أمام فرصة لتطوير مهم وأساسي، لمنح هذا الخطاب قدرة تأثير عميق ومتجذر.

ج. **التواصل:** معرفة بيئة التواصل الافتراضي وطبيعتها وخصوصياتها

لم يعد ممكنًا حصر التبليغ خارج وسائل التواصل الاجتماعي، فهي مساحة أولًا لتوسيع نطاق التبليغ ليتخطى المكان والزمان، وهي مساحة لنشوء الشبهات وطرحها وتداولها، وحصول التداخل بين الشرائح المختلفة، ووسيلة بالتالي لاستطلاع واستكشاف الحالات والموجات الجماعية الثقافية والمعرفية، ومنصة للتعبير عن المضامين الشرعية والإلهية والإنسانية بشكل تفاعلي، وهي منبت خصب للمعايشة وإعادة بناء اللغة وفق معايير التأثير المناسبة للبيئة الاجتماعية، ويمكن للعمل الموجه والمنظم في هذه الساحة أن يستهدف فئات خاصة بشكل محدد ومدروس مسبقًا، يشمل ذلك الشرائح المحدودة القابلة للتأثير، وامتلاك قدرات تأثير سلبية واسعة في الوقت نفسه، أي نخب محدودة، وتنطوي على فرصة معقولة. مخاطر هذه الساحة مرتفعة من ناحية أخرى، وتتطلب الحذر الشديد والصبر، كما أنها تحتاج لمعرفة اللحظات المناسبة للتحرك واللغة المؤاتية بطبيعة الحال، وإن العمل فيها دون الالتفات إلى خصوصيتها سيأتي بنتائج سلبية.

د. **المتلقي:** بناء جزء أساسي من المعرفة في مجال دراسة ظروف المتلقي وتحليلها

معرفة العلاج وأنواع الدواء لا فائدة لها دون قدرة تشخيص حالة المستهدف بذلك العلاج، والمعرفة بالحالات الفردية والجماعية المعاصرة تستدعي جهدًا مستمرًا متواصلًا نظرًا للتغيرات العميقة والمتسارعة التي تجري على المستويات الحياتية المختلفة بفعل الاستحداثات التكنولوجية والبدع الفكرية والأخلاقية المتدفقة عبر تلك التكنولوجيا. أصبحت مسارات وإجراءات الاطلاع على ظروف

المتلقي وخصائصها وتحليل تأثيراتها عليه همًا أساسيًا ينبغي أن يحتل مكانه في الوقت والموارد والتركيز، إذا أردنا إيصال العلاج بشكل مناسب يقبله المتلقي ويتأثر به. ينبغي أن تُلحظ معرفةُ المستهدَفَ وبيئته وترتب على ذلك ملاءمة الموضوعات والأسلوب الخطابي. معرفة البيئة المعاصرة بتأثيراتها هي قضية كبرى تحتاج تركيزًا خاصًا، خصوصًا لما تتميز به من تداخل بين مجالات الحياة المختلفة، وتأثر بمصالح الشركات الكبرى، وحاجة تلك الشركات للتجديد الهادف للربح التراكمي واستمرار الجاذبية، وما يتركه ذلك من آثار على ميادين الحياة بأسرها، مضافًا إلى ما تتميز به الطروحات الثقافية المتداولة بدءًا من اللوحة الإعلانية، وصولًا إلى المرافعات الحقوقية والكونية من قدرة التفاف وتملص ومراوغة بعد أن تم تجاوز سياسات المباشرة، وتستبدل التسلل الناعم والخفي. هذه البيئة ومؤثراتها تحتاج مقاربات خاصة لاختراق سيل تدفقها، وما تفرضه من أزمات اجتماعية ونفسية وثقافية واقتصادية يدعونا إلى بناء تصور كلي ومتابعة تفصيلية تجعلنا على تماس مع حقائق المتلقي الحياتية والوجدانية، وتذهب إلى مقعد مخاطبته مع الإحاطة المناسبة لتشكيل لغة متصلة ومقنعة[1].

هـ. **احتمال التأثير:** تطوير مفاهيم احتمال التأثير لتصبح عملية تفاعلية متكاملة

معيارية احتمال التأثير في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمكن لها أن تعتمد على أدوات ووسائل جديدة في قياس الاحتمالات لدى الشرائح وحتى الأفراد، وكذلك التأثير الذي يتم قياسه صار بإمكاننا تعديله وطرحه كفرضيات تتم تجربتها وقياسها في الميدان،

(1) الخامنئي، جهاد التبيين، م.س، ص 155.

بالاستفادة من مدخلات وعناصر تطوير الخطاب، بهدف الوصول إلى تشخيص التأثير الفعال، وتصبح عملية القياس ناتجة ومتولِّدة من ذلك التفاعل، فعندما نسأل هل هناك تأثير؟ ينبغي أن نسأل قبل ذلك، هل قمنا بممارسة التأثير المتناسب مع الحال؟ هنا ندخل تفاعلية تجريبية تطور الخطاب، وإن لم يكن أمرًا ونهيًا بل تعريفًا وتعليمًا، فإن به أمرًا ونهيًا مبطَّنًا ومستترًا. يمكن أن نضيف إلى ما تقدم، المعرفة بأساليب التأثير بنظرياتها وتقنياتها في المجالات والتخصصات الإنسانية المختلفة، وكذلك أدوات التأثير التي يتم استخدامها لفرض الرسائل على الثقافات المتنوّعة والمختلفة، بحيث ينتقل السؤال عن وجود احتمال التأثير إلى سؤال مختلف كليًا، هو عن المعرفة بأساليب التأثير ومساراته ومقدماته النظرية والتدريبية، وهل أصبحت هذه المعرفة مقدمة ضرورية لتحمل مسؤوليات الخطاب الإسلامي؟ وبأي درجة وبأي سعة؟ وهل يمكننا تطوير رؤى ومقاربات إسلامية خاصة في هذا الميدان؟ وهنا يأتي بطبيعة الحال موقع دراسة عمليات التأثير المنافسة والمقارنة والمشابهة في سياقها المعاصر.

و. **الذاتية والفردانية:** موضعة الخطاب على أساس المصلحة الفردية والشعور الذاتي

- نشرت الحداثة حالة الفردانية ورسّختها عبر مجموعة البنى التحتية التي تشكل المجتمع الحديث، من التعليم إلى نمط الحياة والفنون والهندسة العمرانية، وقبل كل شيء الثقافة الفردانية الصريحة والمباشرة. بالمقابل يبني الخطاب الديني على العقلانية والطمأنينة الاجتماعية التي تحرس الفطرة والبديهيات الشعورية والفكرية، وهذا بالتحديد ما جاءت الحداثة لتهدمه، على أن الهداية الإلهية والخطاب الديني الميسر لها جاء لإقامة القسط والتوازن بين

الفردانية والاجتماعية؛ وبذلك يحمل مفردات فردية تؤدي إلى خدمة الغايات الاجتماعية في الوقت ذاته الذي تعالج فيه الحاجات الفردية، وبذلك السبيل يتحقق أحد وجوه التوازن. الخطاب الديني يستطيع أن يطرق باب الفردانية بما يمتلكه من مفردات تستوعب العلاجات الحقيقية لأزمات الحياة الفردية، وبذلك يخترق الإطار الثقافي المعاصر ويحقق الاتصال مع الشعور الخاص بهذا الجيل ويتمكن من إيصال معالجاته الأكثر عمقًا وجدارة إلى مشاعر المتلقي ومنها إلى المستوى العقلي، ويثبت قواعد الحياة ومرتكزاتها، فتبقى البنى التحتية الحداثوية، إلا أن الإنسان يتمكن من العيش بإنسانيته الكاملة وسط كل هذه الحجب[1].

- يستدعي هذا الاتجاه في الخطاب الانتباه من الوقوع في التوجيه نحو الأنانية والعزلة الاجتماعية والانغلاق، فالتوازن بين الفردانية والاجتماعية يقوم على إخراج الإنسان من ذاتياته كون ذلك الخروج هو سبب سعادته الذاتية وسبب مشاركته في تحسين حياة الآخرين المعنوية والمادية. مضافًا إلى ذلك، يحتاج هذا الاقتراب إلى التعرف بعمق على الفلسفات التي شرّعت وشرحت الذاتية؛ لتحديد كيفية التعامل معها، واستنطاق مفكريها الحاكين عن أزماتها وتعقيداتها وتخبطها في المجهول.

ز. **التنوع في الشرائح:** مراعاة التنوع الكبير في الشرائح عبر لغة عقلانية متداولة[2]

الاتصال المعاصر ووسائله تنقل الخطاب إلى شرائح كثيرة ومتنوعة،

(1) حول البعد الذاتي في خطاب الإمام الخامنئي، راجع: قبيسي، هادي: خطاب الإمام الخامنئي كمدرسة فكرية شفاهية، 2021.

(2) حول تفاوت الشرائح والخطاب المناسب لها، راجع: لقاء قائد الثورة الإسلامية المعظم مع مجموعة من مسؤولي منظمة الإعلام الإسلامي، 18 كانون الثاني 2023.

بحيث أصبح الخطاب الخاص متعذرًا إلا حين الانقطاع الكلي عن تقنيات الاتصال، وحتى حينذاك يتسرب التنوع من خلال التواصل الجاري والمستمر بين الشرائح المختلفة وتلاقح أفكارها ومشاعرها وميولها من خلال بيئة الفضاء المجازي، التي فتحت الشرائح على بعضها بشكل غير مسبوق، بحيث يصبح عزل الفئات أمرًا نادرًا. الخطاب في هذه الحالة يحتاج إلى أن يوائم الشعور والوعي الجماعي واللغة المشتركة، بحيث يستطيع التأثير بقدر متوازن بين الفئات ويطال الحالات المتنوعة.

ح. **الجمالية والتقريب:** البحث والتطلع إلى المناحي العشقية والعميقة في النص الإسلامي

ترتكز الموجات الثقافية المادية الحديثة إلى عنصر التزيين والإغراء[1]، بحيث تؤثر ليس في التوجهات والقناعات، بل حتى في نمط التلقي لدى المخاطب الذي اعتاد على التأثر الجمالي فأصبح بالنسبة للكثيرين المدخل التلقائي إلى الأفكار والمشاعر، يمتلك الإسلام ثروة جمالية هائلة، فالرحمانية هي الصفة الأكثر ظهورًا في الخلق والوحي والإنسان الكامل، وتتمحور كل التعاليم الإلهية حول تلك الغايات الرحمانية. يستطيع الخطاب الديني أن يشكّل حالة منافسة في هذا الميدان لما يمتلكه من اتحاد بين الحقيقة والجمال، فيما ينفرد الخطاب المادي باتحاد التزيين والقشرية. التنافس على الجاذبية الجمالية ليس بالضرورة أن يبدأ من الصدام بين النموذجين والخطابين، بل من تقديم بديل حقيقي وجذاب في آن. من ناحية أخرى يحتاج هذا الاقتراب إلى التوازن بين التنبيه والتحذير وبين الاجتذاب والتقريب، لئلا يحصل الاختلال في التوازن

(1) حول أنماط الهيمنة، راجع: حلاق، وائل: قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، تـ عمرو عثمان، لاط، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2019م.

بين الجمال والجلال، لكن المدخل الجمالي أصبح هو الأكثر إلحاحًا اليوم، سواء أكان في الشكل أو اللغة أو المضمون.

ط. **التبليغ السلوكي:** الخطاب هو لغة وتقديم نموذج ومعايشة ومعاشرة ومتابعة للحاجات

الخطاب المادي يتقدم ليس كرسالة فقط، بل كنموذج حياة، وإن لم يكن بمقدرونا إعادة تشكيل الهندسة الحضارية التامة، فإن علينا أن نقدّم الخطاب في إطار متكامل، بحيث ينسجم مع الحياة التي نعيشها، ومن ذلك أن نقدم نموذجًا فرديًا واجتماعيًا يظهر نتائج ذلك الخطاب وأثره الفعلي والواقعي على الحياة الإنسانية، وهذا يتأتى، في أحد الوجوه، من خلال معايشة الخطيب وانخراطه واندماجه وانسجامه مع البيئة التي يمارس التبليغ فيها، بحيث يكون بتلك المعايشة مبلغًا مضافًا إلى التبليغ الخطابي، فيكون فعله وصمته وكلامه خطابًا يوصل الرسالة الحية والعملية والواقعية.

ي. **دمج المراتب الوجودية:** تنسيق الخطاب ليكون متداخلًا بين الأخروي والدنيوي

يعيش الإنسان المعاصر حالة التنوع في ميادين الحياة، وكثرة المجالات، وتداخل التفاصيل مع ازدحام الاجتماع البشري واكتساح النمط المديني والتكنولوجيا لغالبية المساحات والبيئات الاجتماعية التي كانت فيما مضى تتمايز بمحدودية الإنشغالات وبساطة الحياة. هذا الإنسان يحتاج إلى وصل مجالات وجوده وحياته، وتحقيق الانسجام والتلاؤم والتناغم، واستعادة وحدة روحه وفطرته في خضمّ التنوع الصاخب. مضافًا إلى العناوين التي وردت، والتي تصب بشكل غير مباشر في تحقيق هذه الغاية، يمن للخطاب أن يقدم خدمة جليلة في هذا الميدان، من خلال التشبه بالسرد

القرآني الذي يتصل بالمجالات الإنسانية كافة بشكل متواصل دون أن يقطع ويصنف ويفصل. الروحانية في هذا الخضم، يمكنها أن تحضر في كل الميادين بأحكامها الشرعية وإرشادها الأخلاقي على السواء، وهي خيط رابط لكل أبعاد الحياة وساحاتها، تيسر الأخذ بيد المتلقي لتعلمه أن يبحث عن رضى الحق ويستشعر حضوره في كل مجال وميدان ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾[1]، وهذا يأخذنا إلى ضرورة رعاية الخطاب للتوازن بين المصلحة الدنيوية والحياة الأخروية، وعلاقة كل منهما بالأخرى وموقعها منها في التفصيل، فيعرِّف المتلقي على جماليات الدنيا ودورها في السعي لبناء الحياة الآخرة، كما يعرف المبادئ المعنوية السامية ودورها في تيسير شؤون الدنيوي، في انسجام وتناغم وتخادم. من ناحية أخرى يميل الإنسان المعاصر إلى التفصيل العملي، بعيدًا عن المفاهيم النظرية، فهو يريد بالتالي وسائل سهلة ميسرة للسير والنمو والتكامل، وبذلك ينبغي أن يقدَّمّ له خطابٌ يصل بين المبادئ السامية والتدبير العملي.

3 - طرائق تسييل الخطاب

الخطاب الذي يقوم بدور التغيير وبناء القدرة الإنسانية وتشكيل الجماعة القادرة على التوفيق بين الفطرة والحداثة على أساس الشريعة، هو خطاب يتولد بين المخزون الثقافي والمعرفي واللغوي عند المتكلم، وبين المخزون ذاته لدى المتلقي، ذلك المخزون المتفاوت في قيمته واستقراره، والذي قد لا يصح تعريفه على أنه مخزون أصلًا، لما يعتريه من الحجب والشبهات والجهل أحيانًا، فإنه حالة قائمة ومبنية على أساس عملية تثقيفية مكثفة، تستند إلى بنية تحتية ثقافية شاملة: الإعلام، التربية،

(1) سورة البقرة، الآية 115.

السوق، نمط الحياة، النظام التعليمي، الفنون، الشبكات الافتراضية. ودون معرفة خصائص هذا "المخزون" وطبيعة تأثيره على عملية التلقي لن تتحول عملية التعبير عن الطرح الإسلامي إلى "خطاب" يتعامل مع المخاطبين، بل ستبقى إلى حد ما عملية تعبير وإرسال عن مكنون خاص، يصعب تلمس مدى تلقيه في الأذهان وتسربه إلى منظومة إدارة الحياة لدى الفرد والمجتمع، أي منطقة القناعات الراسخة التي تشكل السلوك.

هكذا خطاب يفترض أن يتولد داخل البيئة الاجتماعية، ليستخدم لغة المجتمع نفسها مع تحميلها لدلالات وأفكار وقضايا أصلية، مع الالتفات بعمق وحرص إلى اعتبارات وهواجس ومخاوف وأولويات الفرد، لغة يتم استنباتها من خلال المعايشة وتنشأ بالتفاعل الطبيعي حين يكون المتكلم واحدًا من الناس، وليس حصرًا بالتفاعل المدرسي، التعلمي/التعليمي، الذي يبني لغة مختلفة كليًا عن تلك المتداولة في المجتمع ولدى الشريحة المتلقية.

أ. **مواجهة تشويه صورة المتكلم:** المهمة الرئيسية هي تفادي العثرات وتجاوز الالتباسات التي يتم تسويقها لإضعاف دور النخبة الدينية، دون الشعور بالتموضع الدفاعي، بل من خلال المبادرة الإيجابية والفعالة.

ب. **التقمص:** الاقتراب من المتلقي فردًا وجماعة، من خلال امتلاك القدرة على تقمص شخصيته وظروفه ومحاولة استشعار العوامل المؤثرة عليه، وكذلك المجهولات التي تؤرقه والحجب التي يعيش في نطاقها والعناصر التي تشكل عوامل الجذب بالنسبة له والكيفية التي يفضل تلقي المعالجات من خلالها.

ج. **الاستماع والتفاعل:** الانتقال من حالة الإملاء التعليمي إلى حالة الحوار التفاعلي في الاتصال، ويحتاج ذلك إلى مرحلة تأسيسية هي

مرحلة الاستماع والإصغاء إلى الجمهور وإلى ما يحتاجه وما يشعر به وما يطمح إليه، وكذلك الإنصات إلى اللغة التي يستخدمها أو يتأثر بها.

د. **البدء من المشكلة:** يشبه هذا قوس الصعود، فنحن ينبغي أن نبدأ من الحالة الأرضية الاجتماعية لنصل في النهاية إلى المرجعية الإلهية، يتوسط بينهما عقل اجتماعي يستطيع أن يصل بين المشكلات وبين الإجابات الشرعية.

- **المشكلة:** تصميم القالب التبليغي والسرد التربوي على أساس المشكلات السارية في المجتمع المستهدف، وفق تعريفه وإدراكه، بحيث يتلقى المعرفة الدينية من الزاوية التي يمكن أن يشعر فيها بالحاجة والفائدة والضرورة، ومن هذا المنطلق يشعر بالفائدة والقناعة وتتشكل لديه الرابطة مع الشريعة.

- **الشبهة:** يفترض معرفة الشبهات المنتشرة سواء أكانت واعية أو مغفولًا عنها أو حتى مجهولة، ومن ثم نقلها إلى حالة الوعي والشعور بالأهمية، والتعريف بآثارها على الإنسان، ومن ثم معالجتها بتقديم البديل المناسب.
- **المعاناة:** هي نطقة مهمّة جدًا؛ لأنها مشكلة يدركها المتلقي ويعيشها ويبحث دومًا عن معالجتها، ولذلك عندما نكتشفها نصبح على تماس وقرب مؤثر من المتلقي، ونمتلك القدرة على ربطه بالشريعة.
- **الحجب المتراكمة:** الحجب عادةً هي مسألة معقدة، بمعنى أن المتلقي يجهلها ويجهل أنه يجهلها، ولذلك تحتاج إلى معالجات غير مباشرة، ويفترض أن تكون هذه المعالجات جذابة ومقنعة.
- **البنى الثقافية:** فهم عناصر الجذب والارتكاز لدى البنى الثقافية

التي تتحكم بالمجتمع، وينبغي الالتفات إلى ضرورة عدم التركيز على الجوانب التي تخالف الشريعة في تلك العناصر، والبحث بموضوعية عن عناصر الجذب الأخرى، بحيث نستطيع أن نعرف الأنماط النفسية والسلوكية التي توفر عملية الانجذاب لدى الجيل الحالي.

- **الصراع الاجتماعي:** تحليل وإدراك مظاهر وأعماق الصراعات الاجتماعية بأبعادها العملية والروحانية، مقدمة أساسية للمعالجة، وهي تتيح للنخبة الدينية التفاعل الحيوي مع البيئة الاجتماعية، بشرط معرفة أسس ومبادئ وتقنيات معالجة النزاعات.
- **المقدمات العقلية:** إدراك وتحليل النقائص في المقدمات والمبادئ الأساسية للتفكير، سواء في ذلك المبادئ العامة الكلية، أو المبادئ المشتركة بين القضايا التي ابتلي بها المجتمع المستهدف، وهي تشكل بنية تأسيسية في الوعي وفي الحكمة العملية للفرد والمجتمع.

- **العقل الاجتماعي:** بعد الانطلاق من المشكلة في الميدان، ندخل إلى الضابطة الثانية في التسييل، وهي استيعاب هذه المشكلة بعقل اجتماعي، أي بعقل مندمج ومنخرط في الساحة المعنوية للمجتمع.

- **اللغة المتداولة:** العقل الاجتماعي يستند إلى لغة تستوعب المشاعر المتعارفة والقصص المتداولة والنماذج والأدبيات الشعبية والشبابية، بحيث يستطيع هذا العقل أن يعبّر عن رسائله بشكل قريب من المتلقي (بلسان قومه).
- **زوايا النظر:** لا يكفي أن نقدم خطابًا يشرح موقف الإسلام من الإشكاليات، بل لا بد من أن ننظر إلى الدوافع التي تحرك الأفراد والجماعات للتورط في الأزمات، وزوايا النظر التي تشغلهم خلال

التعامل مع القضايا المختلفة، والنظر من خلالها، ومن ثم مخاطبتهم من حيث تبتدئ علاقتهم بالمشكلة، وليس من حيث تنتهي فقط.

- **الحس المشترك: ي**حتاج المتلقي إلى التعاطف والتشاعر مع أحاسيسه واعتباراته والآثـار العميقة التي تتركها الانحرافات والحجب والأزمات والالتباسات، بحيث يتحقق التفاعل بينه وبين الخطاب، ويلتفت إلى مراعاة المتكلم له وعنايته به وإدراكه لحالته وتتحقق حالة الخدمة الحقيقية.
- **الأمثلة والتشبيهات:** المقاربة القصصية والتشبيه والنماذج المقارنة من أيسر وسائل الاتصال ونقل الأفكار والتوجيه، وفي بعض التجارب كانت هذه المقاربة بمثالة نقل متطور جدًا على مستوى التأثير، بحسب ما نالته من الاهتمام والرعاية في التأسيس وفي الممارسة.
- **اعتبارات مباشرة:** خروج الخطاب من السياق الزماني والحالات الظرفية والتقلبات التي تأتي بالتحديات والتغيرات الثقافية والنفسية سيجعله عاجزًا عن تبرر جدوائيته وضرورته، مضافًا إلى عجزه عن مقاربة المشكلات في سياقها وأسبابها والعوامل المؤثرة عليها وتراكم الضغوط الجانبية والهامشية حولها، وبذلك تتراجع مصداقيته وواقعيته وكذلك وقعه وصلته مع المتلقي.

- **الرسالة الإلهية**

- **المرجعية:** التي تشكل مصدر الإجابة على الأسئلة الأساسية، وهي تقدم قانون الحياة الملزم والضروري الذي لا بديل ولا غنى عنه في أي من المجالات، وهو الفقه الشرعي، كما تقدم لنا القواعد الحياتية الأخلاقية الفردية والجماعية، وتفتح الباب للإنسانية للعثور على درب الغيب الموصل إلى غايتها والمأوى النهائي للطموحات البشرية اللامحدودة، وتعرفنا على المستقبل الحتمي

والأزلي للمسيرة البشرية في الدار الآخرة وشروط النجاة والسلامة والسعادة في ذلك العالم.

- **الاستدلال:** يحتاج المتلقي المعاصر إلى لمس الأدلة على مصالحه ومكتسباته ومواطنها ومنابعها ومنابتها، ذلك أن موجات الترويج المتلاحقة عملت على إضعاف أصالة القيمة الذاتية واعطت الأولوية للمصلحة بعد أن افترضت وفرضت التناقض بينهما. من ناحية أخرى يحتاج حل المشكلات إلى التعريف بأصولها وأسبابها العميقة وعوامل نشوئها غير المباشرة التي قررتها السنن الإلهية. هذا الاستدلال يحتاج إلى تسلسل وبناء يراعي هذا المبنى الجديد والمرتكز النفسي السائد، بحيث ينفذ إلى بنية الأولويات والهواجس والدوافع لدى المتلقي ويأخذه إلى تلمس الحلول.
- **الغيب:** حل المشكلات في المنظور الإلهي لا يقتصر على السعي الإنساني، وإنما يرتكز بأشكال ومداخل مختلفة على الغيب وعالم الحقيقة، فبعض المشكلات يحلها الدعاء والبث إلى الجليل، وبعضها يحلها التسليم له والتوكل عليه، وبعضها يحتاج إلى عنايته ورعايته وتدخله جل وعلا، وآخر مشروط بالولاية والوسيلة بالنبي (ص) وآله (عله) إلى جانب المساعي الظاهرية العبادية أو الشرعية أو الدنيوية العملية. يحيلنا هذا إلى أزمة المعنوية التي غرق فيها هذا الجيل، واحتجابه عن سبب الحلول الحقيقية لمشكلاته بفعل المادية، وهذا ما يحتّم على الخطاب الديني أن يعيد التعريف بالمعنوية باعتبارها حاجة إنسانية عفوية وبسيطة وطبيعية لكي يتمكن من إعادتها إلى الوعي الفطري والمبنى المشاعري بسلاسة، مع التركيز على أولوية الاستعانة بالمعصومين عليهم السلام في هذا الطريق، وهم السفن الأسرع والغدائر المتاحة نهلًا وقطب الجذب الأكثر قربًا من الإنسان، وكذلك استعادة الآخرة والمصير

النهائي كسؤال وجودي ملح ويومي بالأساس قبل الإجابة عليه، ومن ثم الانتقال من براثن عصر السرعة، وإعطاء المساحة الوافية للتأمل والاجابات الضرورية والحاسمة والراسخة البراهين.

هـ. عقل الفهم/ عقل التفاهم

يحتاج التبليغ إلى بلوغ الفكرة مرحلة القدرة على الانتقال من حالة الفهم الذاتي إلى حالة التفاهم حولها بين المبلّغ والمتلقّي. الرسالة التي تم تلقيها وفهمها في سياق خاص وفق جدال واستدلال مدرسي معتمد، ويمارس بشكل مستقل عن السياق الاجتماعي الجاري خارج المؤسسة العلمية. قبول المتلقي للرسالة يستدعي التفاهم، وهو التقاء الفهم بين طرفين وتناسب التفكير بينهما، بحيث يتحول عقل المبلغ من الاشتغال بالفكرة والرسالة إلى الاشتغال بعملية التفاهم. يستدعي ذلك تحقيق معرفة أولية بخصائص الإدراك والفهم لدى الشريحة المتلقية، ومن ثم ترتيب مسار التفاهم على أساسها. يمكن أن تبدأ عملية التفاهم من خلال التأسيس لقواعد مشتركة في الرؤية والموقف والمصحلة بشكل غير مباشر، ومن ثم الانتقال إلى القضية محل البحث بعد أن تتمكن الأسس والقواعد من تسهيل التفاهم، وهنا يكون الحديث (بلسان قومه) قد أخذ معنى فهم القوم، واللسان هنا له معنى أشمل وأوسع، ويتعلق بالحقل اللغوي وبالحقل المعنوي والمفاهيمي المتداول والذي تستند إليه عملية التفاهم.

و. التوازن بين التعليم والمعالجة

المبلّغ يحمل المعرفة الواقعية والرؤية الكونية وسائر المعارف القرآنية والعترتية، بالعموم تشكل له المنطق والأساس للقيام بالواجب الملقى على عاتقه، لكنه يحتاج إلى معرفة أخرى، وهي معرفة كيفية استخدام

هذه المعارف، وهي معرفة مختلفة كليًا. يمكن له أن ينقل المعرفة التي بحوزته وينشرها لمن يرغب، ويمكنه أن يضيف إليها الحكمة فيكون معالجًا لمشكلات الناس، مستخدمًا المعرفة التي يحملها في الموضع المناسب وبالكيفية المتناسبة وبالوقت الملائم وبالدرجة الكافية، فلا يقدم المعرفة كناقل كما جرت العادة في السياق العلمي المدرسي، بل هو يحمل صفة أخرى سوى صفة المعلم هي صفة المعالج الحكيم الرحيم بعباد الله الساعي خلف سعادتهم، الرافع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، لأن مجرد عرض المعرفة يؤدي إلى تراجع درجة الاستفادة لدى الجمهور العام، فهو يحتاج إلى مقدمات ولواحق وإرشادات تعرّفه على موقع تلك المعارف، وتبين له أهميتها بالنسبة له، وكيف تقع موقع الدواء من شؤونه، فيتعلق بها ويشعر بوقعها ويأخذها معانقًا كدواء كان في انتظاره على يقين أنها ستغير حياته إلى الأفضل[1].

ز. **دمج النظر والعمل**

يستدعي تحويل الخطاب الديني إلى موجه للحياة أن يقدم الرؤية والإدراك الواقعي والسلامة من الشبهات والطهارة من الحجب بالدرجة الأولى، وبالدرجة الثانية أن يوفق بين المستوى المعرفي وبين المقدمات والمتطلبات العملية التي تتيح للمتلقي أن يحول تلك القناعات إلى سلوكيات جارية في الحياة الفردية ومقبولة في البيئة الاجتماعية، بحيث يتحقق الأثر المنشود للرسالة الدينية، فالفكرة والقضية التي يحملها الخطاب تحتاج لأن تندمج بالزمان المعاش لتتحول إلى فعل، وتصبح لباسًا للإنسان ومكونًا لشاكلته وسنخيته من خلال العمل والممارسة اليومية، وهذا ما يتحمل مسؤوليته الخطاب الديني ذاته الذي يفترض

(1) الخامنئي، علي: جهاد التبيين، م.س، ص 156.

أن يوفر الأرضية اللازمة للتحول العملي وتجاوز التعقيدات والتحديات وكسر السدود القائمة في المجتمع البشري، وذلك من خلال برنامج علمي فردي وجماعي يحمله ذلك الخطاب.

ح. **المنطق البسيط**

اللغة الخاصة بالبيئة العلمية بمفرداتها المتعمقة والمندكة في سياق محدد والنابتة في إطار النقد والجدال الدقيق، لا تعاين ولا تطابق المنطق الغالب للبيئات الاجتماعية المختلفة، بل هي تشكّل حاجزًا وعازلًا بين الإدراك وبين المتلقي؛ ولذلك تحتاج عملية التبليغ والتواصل الفعال مع المتلقي إلى منطق آخر أكثر بساطة وعمومية، وللتخلص من حالة الخصوصية بأكبر قدر ممكن، لكي يتحول الخطاب إلى حيوية اجتماعية يتولى كل فرد بأريحية مسؤولية نقله وتبليغه ومشاركته ويتصدى بعفوية لإيصاله لمن يحتاجه، وهذا لا يتيسر إلا من خلال اللغة العمومية، ويكمن الفن الدقيق والراقي في تدبيج الخطاب السهل الممتنع واستخدام الأدب لإيصال ما دق من الشؤون وتعقَّد من المسائل بلغة سلسة وبسيطة ومتماسكة دون تكلف ودون تزلف للجمهور. هذه اللغة النازلة من العقلانية البحتة إلى الحياة اليومية البسيطة هي التي تجعل من الخطاب الديني مؤثرًا وفعالًا في تحديد وجهة المجتمع ومآلاته المستقبلية والأخروية.

ط. **التوازن بين خصوصية المتكلم وبين اندماجه**

بعد تخطي العقبة الكأداء للخصوصية العلمية وتحول الخطاب إلى العمومية، يحتاج المتكلم إلى مراعاة دقيقة لموقعه الاجتماعي، فلا يخسر منبره وإشرافه على البيئة الإجتماعية من خلال الاستغراق في العمومية، بحيث تصبح العامة هي الموجه للخطاب، فخصوصية المتكلم المبلغ بصفته مصدرًا للمعرفة وملجأً للتائهين ومعالجًا لأهل

الابتلاءات المختلفة، لا تضيعها بساطة الخطاب وعموميته، وهنا تفصيل دقيق وفن خاص، محكوم للإخلاص والشفافية والنباهة والتطوير الدائم للتموضع الاجتماعي من خلال التجربة والرقابة المتواصلة، بحيث تتوازن الأبعاد المختلفة وتصل إلى المستوى الذي يوفر التدفق الأفضل للمعارف والمسائل العلاجية المختلفة[1].

ي. **التغيير التدريجي للأفكار**

العقل الجماعي هو تركيب معقد من الاعتقادات الفردية والتوافقات المتفاوتة داخل الجماعة، وهو يتحول إلى نظام اجتماعي من خلال المكنونات الراسخة أو المرنة على حد سواء؛ ولذلك عندما يُراد للتبليغ أن يعيد تشكيل العقل الجماعي، فإنه في الحقيقة يغير النظام الاجتماعي، وسيشعر بأن رسالة التبليغ الديني سوف تمس بأعمدة نظام حياته من عادات وتقاليد وأولويات وضرورات، فسيتردد في إعادة النظر، أو يهمل التفكير في تلك الرسائل، ويقصيها لأنه لم يتسنَّ له النظر في آثارها وفوائدها. يترتب على ذلك أن تقوم عملية التبليغ بوظيفتها بالتدريج وعبر مراحل، فلا ينتقل عبر المراحل دفعة واحدة؛ لأن ذلك يحمل مخاطر الاصطدام بالأعمدة الصلبة للنظام الثقافي الاجتماعي التي قد تخالف أو تتمايز أو تناقض الشريعة المحمدية، فهنا لا بد من قراءة متأنية للوضعية الاجتماعية وتحديد اختبارات مناسبة لكشف المستوى المناسب للرسائل الافتتاحية، وكذلك للموضوعات القابلة للتغيير والتأثير، بحسب كل مرحلة وكل ظرف، وكذلك الالتفات للتحولات والمتغيرات الطارئة أو المنسابة تحت السطح الاجتماعي، لكي تؤخذ بعين الاعتبار كذلك.

(1) كنموذج، راجع: قبيسي، هادي: خطاب الإمام الخامنئي كمدرسة فكرية شفاهية، م.س.

ك. **طرح البديل المفيد**

نظمت الشريعة المحمدية القيم والأحكام، وحددت ما هو صحيح ومناسب ومعروف وحلال وواجب، وفي الجانب الآخر حددت ما هو خاطئ ومنكر وغير مناسب للإنسان ومحرّم عليه. نقل الإنسان بعقله وقلبه من ضفة إلى ضفة، ومن خيار إلى خيار مختلف، ومن سنخية وشاكلة إلى أخرى، يحتاج إلى وازع ودافع، منذر ومبشر، وكذلك إلى بصيرة تدلّه كيف لا يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، عقل مدرك يبين له مصلحته الحقيقية. أحد مداخل التبليغ في هذا العصر هو اعتماد لغة البديل المفيد والقيمة المضافة والربح والنجاح، فهي لغة هذا العصر التي يفهمها الجيل، حيث يشعر أنه يحق له البحث عن مصالحه المشروعة بنظره، غير أنه محتاج لمن يدله على البدائل ويتيح له الخيار الحقيقي والحقاني من بين الخيارات المتكثرة أمامه، وتعريفه على المميزات والقيم التفاضلية التي يحصل عليها معنويًا وعمليًا ونفسيًا واجتماعيًا حينما يعتمد الخيار الإلهي، وهي لغة معتمدة في الوحي القرآني كذلك.

ل. **التجاوز**

يتعرض الخطاب الديني لحصار تراكمي تضيق حلقاته مع مرور الوقت، فرغم نجاح بعض التجارب الحياتية والسياسية الدينية بشكل غير مسبوق في العقود الأربعة الفائتة، فإن الفكرة الدينية لا تزال، في نظر الناقدين، أسيرة التجارب القديمة وما أسبغتها عليها من الصفات والانطباعات، وكأن التجارب الحالية لا تعبر عنها، وهي عرضة من ناحية أخرى لعمل مبرمج يستهدف إقصاءها من المشهد نظرًا لمكونات القوة التاريخية التي تحملها. الخطاب الديني المعاصر يحتاج إلى تسليح مناسب لكي ينفذ من كل هذه القيود، كما يحتاج إلى الأصالة والعمق

حتى لا يلجأ إلى الدائرة الخاصة به ويكتفي بها. تجاوز هذه الأسوار يقوم على معرفة مناسبة بالثغرات التي لم يستطع الإطباق العرفي السائد أو المبرمج والمقصود أن يغلقها والنفاذ منها، وبعضها تمت الإشارة إليه في هذه الورقة العاجلة.

خاتمة:

القضية التي تمّت مقاربتها في هذه الدراسة الشديدة الاختصار كثيرة التشعّب متعدّدة الهموم متداخلة الأبعاد ومتباعدة الجوانب، وهي لا تمّثل موضوعًا نظريًا بقدر ما تعبِّر عن تحدٍّ داهم وكبير أمام الخطاب الديني، كاد يتحول إلى تحدٍّ مصيري في لحظات من العقدين الماضيين. العناوين الثلاث الأساسية للبحث وهي طرائق تشكيل الخطاب، وأهم التشكلات، وطرق التسييل بآفاقها الجديدة المفترضة، تمثل عناوين كبرى حاولت الورقة أن تقدِّم طرحًا مختصرًا يبين مجالات التأمل اللازمة الأولية، وبالتأكيد فإن البحث لا يزال في بدايته، ويحتاج إلى أصحاب المعرفة والخبرة ليعملوا فيه نقدًا وإضافة أو تعمقًا وتوسعة حتى يعطي القضية حقها، كما تحتاج إلى أن تنضج بالتجربة والمراقبة حتى تصبح تعبيرًا عن نجاح واقعي لا تأمل وتفكر نظري وتجريبي.